الدرس الرمضاني (3)

دروس 1427 هـ

تأليـــــــف

أبي يزن حمزة بن فايع الفتحي

(1) قصة سبأ[1]

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فحديثنا الليلة عن قصة عظيمة ذكرها الله تعالى في القرآن ، وهي قصة قوم سبأ لكن قبل الشروع فيها ، نهنئكم ببلوغ رمضان ونسأل الله أن يبارك لنا ولكم فيه ، ولأمتنا وأن يكون طريق مجدها وعزها ووحدتها .

أما قصة هذه الليلة فهي تدور حول (سبأ) وكنا قد انتهجنا من سنتين تقريباً في هذا الدرس أن يكون (درساً قرآنياً) ، وآثرنا اختيار قصص القرآن ، وما تحتويه من مواعظ وذِكَر وعجائب ، ويبقى درس العصر لأحكام الصيام وقضاياه .

يقول تعالى : **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** [سبأ : 15] .

وسبأ دولة في بلاد اليمن ، وسبأ من ملوكهم والآية التي عناها الله النعم والرخاء في البلاد واتساع الرزق ، حيث فسرها بعده **جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** .

كانت تنزل الأمطار ، وتسيل السيول فلا يستفيدون منها فهُدوا إلى طريقة لحفظ الماء ، بناء السدود المختلفة وكان أقواها (سد مأرب) .

فصانوا الماء ، وغرسوا الزرع ، وجملوا البساتين ، فأنبتها الله نباتاً حسناً وبارك الله لهم في أرزاقهم ، وبعث إليهم رسله ، وأمرهم بعبادته ، لكنهم أعرضوا وكفروا ، وقد بين كفرهم في مكان آخر **وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ** [النمل : 22 - 24] .

ومن النعم : أن المرأة كانت تدخل البستان بالمكتل فيمتلئ ولا تحرك يدها لشيء. مكثوا مدة على ذلك النعيم ، والله ليس بغافل عنهم ، واتسعت فيهم الخيرات ومن صور الخير والنعيم عندهم : **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً**

---

[1] (?) تكررت معي هذه القصة بدون قصد فأبقيتها كما هي .

وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ [سبأ : 18] .

القرى متقاربة ، والخيرات دانية ، حيث مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد الزاد والماء . والقرى المباركة هي : الشام .

لكنهم لفسادهم بطروا النعمة فقالوا : **رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ** [سبأ : 19] .

تمنوا مغاوز وقفار يحتاجون فيها للزاد والماء والمتاع ، فمزقهم الله وفرقهم في الأرض شذر مذر حيث أعرضوا عن دينه وكذبوا رسله ، قال تعالى : **فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ** [سبأ : 16] .

أرسل الله الجُرز فنقبت السد ، وخرب الجنان والبساتين ! تحولت الجنان الجميلة إلى خمط وهي الأراك والأثل وهو الطُرفاء .

ولما كان السدر أجودها **وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ** .

 ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ [سبأ : 17] .

 وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ [سبأ : 20 - 21] .

أي دعاهم الشيطان ومناهم ، وليس عنده سلطان عليهم ، لا حجة مقنعة ، ولا عصا مؤلمة ، لكن دعاهم ومناهم فأطاعوه ، فكانت نهايتهم الزوال ، وعاقبيتهم الخسار حيث لم يطيقوا المقام بعد الخراب والدمار ، فتمزقوا في البلاد غسان إلى الشام ، وأنماز إلى يثرب ، وجُذام إلى تهامة ، والأزد إلى عمان ، وأصبحوا حديث الناس ، بعد النعمة واليسار إلى النقمة والدمار .

وأشهر فوائد هذه القصة :

(1)أهمية الإيمان وأثره في نقاء الخير والنعمة .

(2)فناء الدنيا ، وزوال مفاتنها ، وأنها ليست مكان للخلود والبقاء .

(3)إن الكفر بريد المصائب **ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ** .

(4)وجوب شكر النعم ، وأداء حقها ، قال تعالى : **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** [إبراهيم : 7] .

(5)إن الأمر لله من قبل ومن بعد ، وإذا أراد شيئاً أن يقول كن فيكون .

(6)إن رأس الشرور والضلال في هذه الحياة الشيطان **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ** .

(7)والإيمان عصمة البلاء والفتنة **إِلاَّ فَرِيقاً مِنْ الْمُؤْمِنِينَ** .

(8)الإيمان بالدار الأخرة طريق الثبات وعدم الزلل **وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ** .

(9)ضعف حجج الشيطان ، وقلة حيلته ولا يملك إلا الأماني والمواعيد الكاذبة .

ونكتفي بهذا القدر ، والله تعالى أعلى
وصلى الله وسلم على نبينا محمد

(2) مثل الرجلين والجنتين

وهي المعنية بقوله تعالى : ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً** ﴾ [الكهف : 32 - 33] .

واضرب : الخطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم يقول له ربه تعالى : ذكِّر هؤلاء المشركين المستكبرين بمثل الرجلين من بني إسرائيل أعطينا أحدهما جنتين من أعناب محفوفة بالنخيل ﴿ **كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا** ﴾ أي أخرجت ثمارها ﴿ **وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً** ﴾ أي لم ينقص شيئاً والأنهار متفرقة فيهما .

منظر بهيج ونعمة فاخرة ، وقيل إنهما أبناء لرجل واحد ، ورثا هذا المال من أبيهما ، فأحدهما أعطى المساكين والمحتاجين ، والآخر منع أهل المال وشح على الآخرين ، فابتلاهما الله .

المتصدق لرجائه ما عند الله ، ولإيمانه بالبعث والحساب ، طمع في ثواب الله ، فتصدق بكل ما يملك حتى افتقر .

والآخر أبى ورفض ، وطرد المحتاجين وفُتن بحب المال ، وزاده الله فتنة به حيث كثر ماله وولده حتى : ﴿ **أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً** ﴾ [الكهف : 34] .

جاءه أخوه الصالح ناصحاً له ، ومذكراً بحق الله عليه ، وفي ماله ، لما رأى فقره سخر منه وقال انظر ما أنا فيه من العزة وكثرة المال والعيال ، وجمال البساتين .

فذكره أخوه بالساعة ، وفناء الدنيا ، والعود إلى الله ، فقال له : ما أنا فيه من المال والعيال والبساتين هو دائم سَرمدي ﴿ **مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً** ﴾ [الكهف : 35 – 36] .

والمعنى : لو قدر إن رجعت إلى الله ، لكان لي عنده أوفر الحظ والنصيب ، لأنه أكرمني في الدنيا ، فبعيدٌ أن يُهملني في الآخرة .

فذكره أخوه مرة أخرى ﴿ **أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً** ﴾ [الكهف : 37] أي كيف لا

تؤمن بالله وبالبعث ، وقد خلقك من نطفة من ماء مهين ، ثم سواك رجلاً كاملاً مستوياً .

 لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً [الكهف : 38] أي رغم ما أ،ا فيه من الفاقة والحاجة فلن أشرك بربي ، ولن أبدل ديني ، وكان جديراً بك أنك لما دخلت جنتك أن تقول : **مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ** [الكهف : 39] أي تقولها لما رأيتني أقل منك مالاً وولدا .

لكن لعل الله أن يرزقني خيراً من جنتك ويسلط على جنتك الآفات ، فتراها وقد تبدلت ، وذهبت خضرتها وجمالها **فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنْ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً** [الكهف : 40] الحسبان : هو العذاب من المطر ، والصعيد : أي البلقع الأملس ، لا تثبت فيه قدم .

وربما أيضاً **أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً** [الكهف: 41].

<u>فماذا حصل ؟ !</u>

وقع ما خشيه المؤمن وسلط الله على الجنتين حُسباناً من السماء أي مطراً مدمراً دخل المسكين فيها يستمتع بها ، فلم ير إلا اليبس والدمار والجفاف .

قال تعالى : **وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ** أي دُمِّر **فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً** [الكهف: 42] خسر فيها أمواله وجهده ، وندم على كفره **وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً** [الكهف : 43] أي لحظة نزول البلاء ، لم ينفعه الإخوان ، ولا نصره الأعوان .

ثم قال الحق : **هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً** [الكهف: 44] أي يوم القيامة يتولى الله الخلائق فينصر المؤمنين ، ويخذل الكافرين .

وعلى قراءة الكسر (الوِلاية) هنالك السلطان لله في المعاد .

أما أهم ما يستفاد من هذه القصة ما يلي :

(1) إثبات البلاء في هذه الحياة ، وأن قصص السابقين ذكرى للآخرين .

(2) أن الدنيا حلوة غرارة ، تغر ضعيفي الإيمان ، والمهووسين بها .

(3) إن الرزق بيد الله ، وهو خالق العباد ورازقهم فيجب شكره والقيام بحقه .

(4) إن الكفر والمعاصي ظلم للنفس ، وتحطيم لقدراتها .

(5) وجوب الإيمان بالبعث والقدوم على الله للحساب والجزاء .

(6) إن أطوار خلق الإنسان دليل على قدرة الله واستحقاقه للعبادة .

(7) مشروعية ذكر الله عند رؤية النعم والمحاسن .

(8) بيان سوء عاقبة الشرك بالله ، وإنكار البعث **يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً** .

(9) إن الشرك والمعاصي سبب لفناء الأرزاق ، وذهاب الأموال .

(10) بيان قدرة الله العظيمة ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

ما بين طرفة عين وانتباهها

يغيّر الله من حال إلى حالِ

(4) غزوة بدر

هذه أول لقاء في التاريخ بين الإسلام والوثنية ، فهو يوم الفرقان ، وساعة النصر والإعزاز .

يقول تعالى : **وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** [آل عمران : 123] .

ويقول في سياقها المطول ، ووصفها الدقيق : **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ** [الأنفال : 5 - 6] .

هذا الخروج كان سببه بلوغ الأنباء إلى رسول الله عن قافلة قريش التجارية المحملة بالأموال الجزيلة ، فندب أصحابه إلى الخروج وخيرهم فخرجوا للعير دون استعداد للقتال لكنهم كانوا يحبون العير ولا يريدون المصادمة ولذلك جادلوه ، كيف يطلب منا المقاتلة ، ولم نأخذ أهبتنا ولم نستعد .

قال تعالى : **وَإِذْ يَعِدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** [الأنفال : 7 - 8] .

المعنى : لا تعلمون ما هي المصلحة العظمى من قتالكم المشركين وأنها نصركم عليهم ، وإحقاق الحق ، ورفع لشأن الإسلام .

وبالفعل حصل الاجتماع والاصتطدام بين المشركين والمسلمين ، وفر أبو سفيان بالقافلة بعد أن غيّر الطريق ، وأرسل رجلاً إلى مكة يستنصرهم اسمه (ضمضم بن عمرو الغفاري) .

يقول تعالى مشيراً إلى نوع من الاستعداد للمعركة : **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ** [الأنفال : 9] .

الاستعانة هنا هي دعاء رسول الله ربه لما نظر إلى أصحابه فإذا هم قلة ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل القبلة ودعا (اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبدُ في الأرض أبداً) .

فما زال يستغيث حتى سقط رداؤه ، حتى جاءه أبو بكر فقال : كفاك مناشدتك ربك ، إنه سينجز لك ما وعدك .

قال تعالى : **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** [الأنفال : 10] .

أي ما جعل الله نزول الملائكة إلا بشرى لكم وليطمئن قلوبكم ، فهو قادر على نصركم بدون ملائكة ولا غيرهم .

ثم ينتقل السياق إلى كشف صورة من المعركة : **إِذْ يُغَشِّيكُمْ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ** [الأنفال : 11] .

غشاهم الله بالنعاس أماناً من الخوف والقلق الذي حل بهم ، حيث كانت تسقط سيوف بعضهم .

وجاء في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله سِنة من النوم ثم استيقظ مبتسماً فقال : (أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع) أي الغبار ، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** [القمر: 45] . ومن نعمة الله عليهم أن أنزل عليهم المطر ليلة بدر ، فجف الغبار ، وتلبدت به الأرض ، وطابت نفوسهم ، وثبتت به أقدامهم .

ثم من نعمته عليهم قوله : **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** [الأنفال : 12] .

ونكتفي بهذا القدر ، ونكمل إن شاء الله في المجالس القادمة .

(5) تابع غزوة بدر

يقول تعالى في سياق الآيات : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمْ الأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** [الأنفال : 15 - 16] .

قيل نزلت في أهل بدر ، نهاهم الله عن الفرار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك اليوم العظيم ، وعموماً لا يمنع عموم الآية ، وأن الفرار يوم الزحف من الكبائر المحرمات .

ثم قال تعالى : **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ** [الأنفال : 17 - 18] .

والمعنى إنكم لم تهزموا المشركين وتناولوا منهم بحولكم وقوتكم ، وإنما الله هو الذي أظفركم عليهم .

وهناك روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ قبضة من التراب وقال : (شاهت الوجوه) فلم يبق أحد إلا بلغته وشغلته وقال :

 ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ وهذه بشارة أخرى لأهل الإيمان مع مع جعل من النصر ، إلا أنه أخبرهم أن الله مضعف كيدهم فيما يستقبل من الأمور .

ثم قال تعالى : **إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** [الأنفال : 19] .

هذا خطاب للكفار يعني : إن تستنصروا وتستقضوا الله يفصل بينكم وبين أعدائكم فقد جاءكم ما سألتم .

وسبب ذلك : إن أبا جهل قال يوم بدر : (اللهم أينا كان أقطع للرحم ، وآتانا بما بمالاً نعرف فأرحنه الغداة) .

ثم يتوعدهم الله تعالى **وَإِنْ تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** أي عن هذا الكفر والتكذيب ، **وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** جموعكم سنهزم ، وجيوشكم ستقتل والله مع عباده المؤمنين ينصرهم ، ويعلي شأنهم ، فماذا تريدون ؟! **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ** [الأنفال : 20 - 23] .

ونكتفي بهذا القدر ، والله الموفق ،،

(5) تابع غزوة بدر

نستكمل في هذا الدرس بقية الآيات في الأنفال ، بدأت الآيات إلى توجيهات مهمة لأهل الإيمان ، وتحذيرات للمشركين .

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال : 24 - 25] .

ثم يذكرهم الله تعالى بنعمته عليهم بعد الضعف والاستضعاف والخوف في مكة ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [الأنفال : 26] .

ثم يحذرهم من الخيانة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [الأنفال : 27 - 28] .

ثم نداء آخر لأهل الإيمان ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الأنفال : 29] .

ثم ينتقل السياق إلى مخاطبة رسول الله ، وتذكيره بما من الله عليه من الحفظ والصيانة من مكر المشركين به ليلة الهجرة ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [الأنفال : 30] .

بعد ذلك يخبر الله تعالى عن كفر قريش وتمردهم ، وأنهم لو سمعوا القرآن ادعوا معرفته من قبل ﴿ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** ﴾ [الأنفال : 31] أي أكاذيب سمعها ، فهو يتعلم منها .

ومن بليغ جهلهم وشدة كفرهم اسمع ﴿ **قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ**

ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [الأنفال : 32] وكان الأولى أن يطلبوا هداية الله ، وليس استعجال العذاب والمقت .

قال تعالى : **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** [الأنفال : 33] .

ثم ينطلق السياق إلى أن يخبرنا عن حربهم لدين الله ببذل الأموال **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** [الأنفال : 36] .

قيل نزلت في مشركي بدر لما نجت العير ، وعادت إلى مكة قال أبو سفيان (يا معشر قريش : إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا الحال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا) ففعلوا .

ثم يتواصل السياق في تحذير المشركين من الكفر وأمر المؤمنين بقتالهم إذا أصروا على عنادهم إلى أن يصل إلى بيان قسمة الغنائم **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** [الأنفال : 41] .

يعني بدر أعلى الله فيه كلمته ، وفرق بين الحق والباطل .

ثم بدأ الله يصف (يوم الفرقان) هذا **إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ** [الأنفال : 42] .

هذه أسماء مواضع : العدوة الدنيا : موضع قريب من المدينة نزل بها المسلمون والعدوة القصوى : نزل به المشركون ، والركب : أبو سفيان والقافلة .

يقول : نحن جمعنا بينكم **وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ**

عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ أي ليكفي من كفر بعد الجمع لما رأى من الآية والعبرة .

ثم يقول الله تعالى : **إِذْ يُرِيكَهُمْ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** [الأنفال : 43] .

يروي أن رسول الله رآهم في المنام وعدتهم قليلة فأخبر المسلمون ففرحوا ، وثبتهم ذلك ، ومعنى فشلتم : أي جبنتم واختلفتم .

 وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ [الأنفال : 44] .

وهذا من لطف الله عليهم عند الملاقاة معهم أنه قللهم ليطمعهم فيه حتى قال ابن مسعود (لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل جنبي .. تراهم سبعين ، قال : لا ، بل مائة حتى سألنا رجلاً منهم : كم كنتم ، قال : ألف) .

 لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ أي يجمع بينكم ليعلي دينه ويهزم أعداءه .

ونكتفي بهذا القدر ... والله أعلم ,,

(7) تابع غزوة بدر

نستكمل أيضاً آيات الأنفال ، وبلغنا عند قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** [الأنفال : 45 - 46] .

وهذه جملة من الآداب والتوجيهات عند القتال :

أولاً : الثبات عند القتال .

الثاني : مشروعية ذكر الله كثيراً .

الثالث : طاعة الله ورسوله .

الرابع : كراهة النزاع ، وإنه سبب للهزيمة .

الخامس : ضرورة الصبر وأهميته .

وقد تحلى صحابة رسول الله بهذه الخصال ، وقاموا بها خير قيام .

ثم حذرهم تعالى عن مشابهة المشركين **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** [الأنفال: 47] .

خرج أهل مكة بطرين ، دافعين للحق ، ومتفاخرين كما قال أبو جهل (والله لا نرجع حتى نرد بدراً وننحر الجزور ، ونشرب الخمر ، ونعزف القيان ، ويتحدث العرب بمكانتنا هذه ، فلا يزالون يهابوننا أبداً) .

ثم قال : **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ** [الأنفال : 48] .

حيث جاءهم في صورة (سراقة بن مالك الجعشمي) وثبتهم وقال : (أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه) .

حضر الشيطان وجنود المشركين ، وحضر جبريل بالملائكة ، فلما رآه الشيطان فر وخرج من المعركة كما قال تعالى : **نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** [الأنفال : 48] .

ولما فر لزمه الحارث بن هشام ، فضربه على صدره وفرحتي ألقى نفسه في البحر ، كما في السيرة .

ثم قال تعالى : ﴿ **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الأنفال : 49] .

والمراد أناس خرجوا مع المشركين منافقون ، وقيل نطقوا بالإسلام ولم يخالط قلوبهم ، رأوا قلة المسلمين في بدر فتهكموا فرد الله عليهم ﴿ **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ أي يعتمد عليه فإنه منصور ، لأن الله عظيم الجناب .

ثم ينتقل السياق لخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾ [الأنفال : 50] .

أي لو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمراً عظيماً ، وشيئاً فظيعاً ، إذ يضربون وجوههم وأدبارهم أي مقاعدهم ، وذلك متى ؟ في بدر وهو يشمل كل أحوال المشركين .

ثم قال مخاطباً لهم : ﴿ **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾
[الأنفال : 51] أي بسبب أعمالكم ! كفركم وعنادكم وتكذيبكم لرسولكم ، والله لا يظلم أحداً بل هو الحكم العدل سبحانه وتعالى .

(8) تابع غزوة بدر

نستكمل أيضاً بقية الآيات في سياق سورة الأنفال ، الحاوية لأحداث غزاة بدر الكبرى .

يقول تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال : 53] .

والمعنى : أن الله لا يزيل نعمة عن عباده إلا بسبب ذنوبهم ، وهذا من تمام عدله وقسطه . ثم مثل بآل قال فرعون بأنه أتاهم نعماً كثيرة ، وكنوزاً عظيمة ، ولكن ظلموا واعتدوا .

فقال : ﴿ **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ** ﴾ [الأنفال : 54] .

ثم ينتقل السياق إلى جملة من الآداب والوصايا المتعلقة بالحرب إلى أن قال تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [الأنفال : 67 - 68] .

وهنا تعرض الآيات لقضية عظية ، وقع فيها الاختلاف ، وهي (أسرى بدر) .

انتصر المسلمون ، قتلوا سبعين ، وأسروا سبعين فاحتاروا ما يصنعون بهم ؟!

فاستشار صلى الله عليه وسلم أصحابه ، فقال أبو بكر : بنو العم والعشيرة ، فخذ منهم الفداء ، وقال عمر : لا أرى والله رأي أبي بكر ولكن أرى أن تمكنني من زيد ، وأن تمكن حمزة من قريب له ، ونقتلهم حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا على المشركين هوادة ، فهؤلاء أئمة الكفر وقادتهم .

فلم يهوَ رسول الله رأي عمر ، وهوي رأي أبي بكر ، فأنزل الله تعالى : (**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى**) والمعنى : لابد من قتلهم حتى يثخن ويتمكن في الأرض فجاء عمر في اليوم الثاني ، ورسول الله وأبو بكر يبكيان فقال : ما يبكيكما ، إن كان ثمة شيء بكيت وإلا تباكيت .

فقال رسول الله (أبكي للذي عرضى على أصحابك من الفداء ، لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة) لشجرة قريبة .

ثم نزلت : (**لَوْلا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ**) .

قيل : حل الغنائم ، وقيل : المن على الأسرى .

ثم قال : **فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** [الأنفال : 69] .

وكان الفداء المعروض عليهم أربعون أوقية لكل فرد أربعة آلاف درهم .

ومن لم يفاد أو عجز ، علم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، وهذا شيء عظيم ، وإنجاز حضاري عمله الإسلام في أول الدعوة الإسلامية ، كما نبه على ذلك الأستاذ / شوقي ضيف في كتابه في سيرة خير المرسلين .

والله الموفق ،،

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه

(9) تابع غزوة بدر

نستكمل آخر شيء في السورة وهو قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** [الأنفال : 70] .

هذه نزلت في العباس وبعض المكرهين ، الذين خرجوا رغماً عنهم ، خيرهم الله إن ما أخذ منهم من المال سيعوضهم عنه .

ولذلك العباس كان يقول : (فأنزلني الله خيراً من ذلك ، لي الآن عشرون عبداً ، إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً ، وأعطاني زمزم ، وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربي) .

ثم قال تعالى : **وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** [الأنفال : 71] .

والمعنى : أي يخونوك فيما أظهره لك من الأقوال ، فقد خانوا الله بالكفر قبل بدر فأمكن منهم أي بالأسر في المعركة .

بعد ذلك انتقلت الآيات للحديث عن أصناف المؤمنين .

هنا ينتهي الحديث القرآني عن غزوة بدر ، أول مشهد في التاريخ ، وقد حصل فيه المصالح ، والفوائد للأمة ما لا يحصى وظهر النفاق بعده حيث قال رأس المنافقين : (إن هذا أمر قد توجه ، فادخلوا في دينه) .

فدخلوا مظهرين الإسلام ، ومبطنين الكفر **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** [البقرة : 14] .

لا ريب أن هذا الحدث العظيم غاص بالحكم والعبر الجديرة بأن يهتم بها المسلم فمنها :

(1) إن النصر من عند الله ، فهو النصير سبحانه وتعالى ، فليس بالكثرة ، ولا بضخامة العدة **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ**   **كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ** .

(2) إن من يغالب الله يغلب ، خرجوا متحدين بطرين ، فجعل الله كيدهم في نحورهم .

(3) تأييد الله لجنده بالملائكة .

(4) النكاية بالعدو والتعرض لقوافلهم وتجاراتهم .

(5) وجوب الإعداد للقتال **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** .

(6) فضل أهل بدر وأنهم من خالص المؤمنين وهم من أهل الجنة .

(7) إحلال الغنائم لهذه الأمة .

(8) جواز فداء الأسرى أو المنّ عليهم .

(9) أهمية الشورى في اتخاذ الأحكام والقرارات .

(10) إن هذه المعركة فرقاناً بين الحق والباطل .

وغيرها من الفوائد التي تفوق الحصر وليس هذا موضع استقصائها

والله الموفق ، والهادي إلى سواء السبيل

(10) غزوة الأحزاب

حديثنا الليلة عن قصة قرآنية ، تحكي موقعة عسكرية ، وقعت بين النبي صلى الله عليه وسلم وجيش مكة ومن تحزب معه .

وهذه الغزوة تعرف (بالأحزاب) أو (الخندق) وقد وقعت سنة 5 هـ . والآيات تتلى في سورة الأحزاب تبدأ من قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً** [الأحزاب : 9] .

يذكرهم سبحانه وتعالى بنعمته عليهم ، حيث اجتمعت عليهم جموع كثيرة من قريش والأحابيش وغطفان خرجوا بايعاز من بعض اليهود .

فيقول : **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا** أي هزمناهم بأمرين : الريح التي شتت شملهم ، وكذلك جنود لم تعاينوها وهي الملائكة التي زلزلت قلوبهم .

والريح التي نُصر بها عليه الصلاة والسلام تُسمى (الصَّبا) وقد صح عنه قوله : (نُصرت بالصَّبا ، وأُهلكت عاد بالدَّبور) .

ثم يضيف تعالى انتشار هذا الجيش العرموم المتحرب ، الذي بلغ عشرة آلاف مقاتل **إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ** [الأحزاب : 10] . من فوقكم : أي جمع الأحزاب ومن أسفل منكم : اليهود من بني قريظة ، بنقضه العهد .

زاغت الأبصار : أي مالت ولم ولم تنظر إلا إلى عدوها ، وبلغت القلوب الحناجر: تصوير للخوف لأنها بلغت حلوقهم ويظنون بالله الظنونا ، ظن المؤمنون كل ظن وحس بعضهم أن الدائرة عليهم ، ونجم نفاق المنافقين .

ثم قال تعالى : **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** [الأحزاب : 11] أي في ذلك الموقف اختبروا بالقتال والحصار ليبين المؤمن من المنافق .

ثم تعرض السياق لدور المنافقين الخبيث في التخذيل والجبن **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً** [الأحزاب : 12] .

هذا في قصة الصخرة التي عرضت لهم ، فكسرها رسول الله ، وكلما أضاءت الضربة قال (أُعطيت مفاتيح فارس ، أعطيت مفاتيح اليمن) فقالوا : يعدنا محمد أن نفتح مدائن كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله) **وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا** [الأحزاب : 13] .

المعنى لا فائدة من مكثكم مع محمد هاهنا عودوا إلى مساكنكم لترتاحوا وتطمئنوا .

 وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً [الأحزاب : 13] .

عنت الآية بني حارثة قالوا لرسول الله : بيوتنا نخاف عليها السراق ، وليس لها من يحميها .. فرد الله **وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً** .

ثم كشف كذبهم وخورهم بقوله : **وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً** [الأحزاب : 14] . أي لو هجم هؤلاء الأحزاب على بيوتهم واستولوا عليها وسألوهم الفتنة أي الكفر ومقاتلة المسلمين لانضموا معهم ، ذلك أنهم لا يحافظون على إيمانهم مع أدنى خوف وهلع **وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً** .

ثم وبخهم الله زيادةً على ذلك **وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً**
[الأحزاب : 15] .

كم مرة عاهدوا على عدم الفرار ، قيل بعض من تخلف عن بدر ، وقيل بل من فر يوم أحد **وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً** سيسألون عن معاهدتهم تلك يوم القيامة .

ثم قال تعالى : قل لهم يا محمد ﴿ **لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ** ﴾ [الأحزاب : 16] أي أن فرارهم لن يؤخر آجالهم ، بل ربما كان سبباً في تعجيل أخذهم غِرة .

ثم قال ﴿ **قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً** ﴾ [الأحزاب : 17] .

أي لن يمنعكم أحد من عذاب الله ، إن أراد بكم شراً أو خيراً ، ولن ينصركم أحد دون الله .

ونكتفي بهذا القدر .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ،،

(11) تابع غزوة الأحزاب

نستكمل أيضاً آيات الأحزاب الكاشفة لمجريات المعركة الفاصلة بين الإسلام والشرك والكفر ، وكنا وقفنا عند قوله : **قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً** [الأحزاب : 18] .

يخبرهم تعالى من أنه محيط بالمعوقين عليم بهم وبمقولاتهم ، وما يقولونه لإخوانهم ، والمعوقين المراد بهم المثبطين ، حيث يقولون : دعوا محمداً ، ولا تشهدوا الحرب معه ، وهم جماعة من المنافقين .

ثم كشفهم تعالى بقوله : **وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً** أي إن خرجوا فإنما هو رياء وسمة وليس لله تعالى .

ثم وصفهم بقوله : **أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً**
[الأحزاب : 19] .

أي هؤلاء أشحة ، أي بخلاء بالنفقة في سبيل الله ونصره .

ثم عيرهم تعالى بالجبن **تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ** فإذا ذهب الخوف **فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ** أي آذوكم بالألسنة الحداد الفصاح .

 أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أي عند الفتنة يشاحون المؤمنين ويصيحون فيهم أعطونا قد شهدنا معكم .

ثم بين حقيقة إيمانهم **أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً** .

ثم زاد في كشف جبنهم وهلعهم من العدو : **يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً** [الأحزاب : 20] .

فهم في تفكير دائم ، أن الأحزاب قريبون منهم ولو قُدِّر جاء الأحزاب إليهم تمنوا لو كانوا في البادية وليسوا في المدينة ، ليأخذوا أخباركم من الناس **وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً** قيل يقاتلون رميا بالحجارة ، وقيل لإباء وسمعة فحسب .

ثم جاءت الآية العظيمة والتي هي مدرسة في الشجاعة والبروز والاستبسال ، فيقول لهم تعلموا منها : **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** [الأحزاب : 21] .

وهي أصل عظيم في الاقتداء به والتأسي بسنته في كل الأحوال لا سيما حال الصبر والجهاد والمرابطة .

ثم عرج تعالى بوصف أهل الإيمان ، الذين لم يداخلهم الوهن ، ولم تجتاحهم الظنون الفاسدة **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً** [الأحزاب : 22] .

هذا ما وعدنا الله ورسوله من الامتحان الذي يعقبه النصر والفرج .

وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما دليل على زيادة الإيمان وقوته. (إيماناً) بالله ، و(تسليماً) انقياداً لأوامره .

ثم قال تعالى رداً على المنافقين بأنكم فررتم ونقضتم ما عاهدتم الله عليه من عدم الفرار **مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** [الأحزاب : 23] .

عاهدوا على الصبر والقتال وعدم الفرار فمنهم من قضى نحبه أي عهده ، وآخر ينتظر وما بدلوا عهد الله ولا غيروه .

ثم قال **لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً** [الأحزاب : 24] .

أي إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر الصادقون ، وينكشف الكاذبون ، ثم هم تحت رحمة في الدنيا ، إن شاء عذبهم ، وإن شاء تاب عليهم وأرشدهم للإيمان .

والله الموفق ،،

انتهى الدرس ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد

(12) تابع غزوة الأحزاب

وكنا قد وقفنا في المجلس الماضي عند مدح الله لعباده المؤمنين الثابتين في الأحزاب ، وكيف أنهم لم ينهزموا أو يضعفوا بل قالوا : **هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً** [الأحزاب : 22] .

ثم مدحهم بقوله : **مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** [الأحزاب : 23] .

والآن نختم بالآيات الكاشفة لنهاية المعركة وما آلت إليه ، قال : **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً** [الأحزاب : 25] . أي طردهم وأحزابهم بعد جمعهم وفرقهم بالريح التي فرقت شملهم، وقلعت خيامهم قال : **لَمْ يَنَالُوا خَيْراً** حيث فشلت خطتهم وخاب ظنهم في الدنيا واكتسبوا الإثم والنقمة في الآخرة .

وقال : **وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ** لم ينازلوهم ولم يبارزوهم ، إلا تراشقاً بالسهام حصل ، ومبارزة بين علي رضي الله عنه ، وابن عبد ود العامري .

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم بقوله : (اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم) .

وفي قوله **وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ** إشارة إلى انتهاء المعارك مع أهل مكة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم كما في صحيح البخاري : (الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم) .

 وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً أي بقوته وعزته نصر عباده ، فهو النصير لهم ، ليس بقوتهم ولا بأسلحتهم وذكائهم . وفي خلال ذلك أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة يأتيه بخبر القوم لما شغلتهم الريح وأرعبتهم الملائكة ، في قصة مشهورة مليئة بالفوائد .

حتى قال أبو سفيان (يا معشر قريش والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ما يطمئن لنا قدر .. فارحلوا فإني مرتحل) .

وكان ثمة دور كبير بذله نُعيم بن مسعود الغطفاني حيث خذَّل في الفريقين ، وضعضع عزائمهم .

ثم قال تعالى : **وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً** [الأحزاب : 26] .

والمعنى بنو قريظة لما نقضوا العهد أنزلهم الله على حكمك ، وقضى فيهم سعد ابن معاذ حيث حاصرهم ، وقال له جبريل لما وضع السلاح (أوضعتَ السلاح انطلق إلى بني قريظة ، فإني ذاهب إليهم فمزلزل بهم) !!

فنزلوا على حكم سعد بن معاذ ، وظنوا يحسن فيهم وقد كانوا مواليه فقضى بقتل المقاتلة ، وسبى النساء والذرية ، فقال عليه الصلاة والسلام : (لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله) .

أنزلهم من صياصيهم أي حصونهم **فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً** .

ثم قال : **وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً** [الأحزاب : 27] أورث المسلمين أراضيهم وأموالهم ومزارعهم **وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا** قيل خيبر ، وقيل مكة ، وهي بشارة لهم بظهورهم ونصرهم ، وحصول فتوحات جديدة لهم .

هذه هي غزوة الأحزاب من خلال الآيات المذكورة في السورة وأهم فوائدها :

(1)حفظ الله لدينه ، وحمايته لأوليائه مهما فعل المجرمون ، أو تحزب الطغاة المتفرعنون .

(2)تأييد الله لعباده بالخوارق والآيات .

(3)ابتلاء المؤمنين لتمحيصهم وكشف أعدائهم .

(4)خطورة النفاق والمنافقين على الجماعة المسلمة وعلى وحدة الأمة وتضامنها .

(5)كشف دور اليهود الخياني ، القائم على الغش ونقض العهود .

(6)إن الحرب خدعة ويتجلى هذا في دور نعيم بن مسعود رضي الله عنه .

(7)سوء نهاية بني قريظة بسبب نقضهم العهد .
(8)فضيلة سعد بن معاذ حيث أصاب حكم الله في الناكثين .

والله الموفق ،،
انتهى الدرس ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد

الفهـــــــرس